المفارقة اللفظيَّة
بين الرؤية و التشكيل
قصيدة (فخر وعتاب)
لأبي فراس الحمداني نموذجًا

عفاف الحاج بابكر عبد الرحمن

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية التربية والآداب

جامعة تبوك

المفارقة اللفظيَّة بين الرؤية و التشكيل قصيدة (فخر وعتاب) لأبي فراس الحمداني نموذجاً

عفاف الحاج بابكر عبد الرحمن
أستاذ الأدب والنقد المساعد - كلية التربية والآداب - جامعة تبوك
البريد الالكتروني: aabdulrhman@ut.edu.sa

ملخص: يسعى هذا البحث إلى تتبع ظاهرة المفارقة اللفظية واقترانها بالزمن وسياق الحدث عند شاعر من أهم شعراء العصر العباسى ألا وهو أبو فراس الحمداني، وذلك في دراسة حالة المفارقة اللفظية وتشكيلها في قصيدة من فرائد شعره، وتحرى العوامل التي شكلت هذه الحالة الثنائية وراء حِرص الشَّاعر على استخدام بعض المتناقضات، وكيف أثَّرت فى بناء أسلوبه الشِّعرى من ناحية، وكيف كانت سببًا فى تفاعل القارىء معه من ناحية ثانية. ومن ثمَّ اعتمدت هذه الدِّراسة على المنهج النقدي التَّحليلى؛ بيانًا لتشكيل الظاهرة و كشفًا للرؤية الشعرية التي قدمتها القصيدة. وذلك مؤسس على الوصف الكيفي للظاهرة المتمثلة فى النَّص، وأيضًا الوصف الكمي لها، ولكن ليس بطريقة رقميَّة وإنَّما بطريقة ذيوع ظاهرة المفارقة و انتشارها، مستندًا إلى حقائق حياتيَّة، ومنها إلى حقائق إبداعيَّة خاصة بتميز الشَّاعر، لذلك كان اللجوء إلى مقاربة هذا المنهج حتَّى يتسنى الوصول إلى نتائج موضوعيَّة بقدر المستطاع. وتكمن أهمية هذه الدِّراسة فى كونها تجربة ذاتية صادقة، وفى الوقت نفسه تعتمد على ذاتيَّة الإبداع، ومن ثمَّ فهى داعمة للمنهج التَّحليلى فى أنَّها تجربة ذاتيَّة من واقع معايشة الشاعر وغير ذاتيَّة– فى الوقت نفسه – في تقويم الظاهرة.

الكلمات المفتاحية: التشكيل؛ أبو فِراس الحمداني؛ الرؤية؛ التجربة الشعرية؛ المفارقة.

the paradox between vision and formation is the poem (pride and reproach) by Abu Firas al-Hamdani as a model

Afaf Al Hajj Babiker Abdul Rahman
Assistant Professor of Literature and Criticism - College of Education and Arts - University of Tabuk
Email: aabdulrhman@ut.edu.sa

Abstract: This research seeks to trace the phenomenon of verbal paradox about one of the most important poets of the Abbasid era. He is abu Firas al-Hamdani. This is in the branch of contradiction between words and the complementary relationship which occurred between the two sides of this contradiction، and investigate the factors behind the poet's eagerness to use some contradictions، and how it influenced the construction of his poetic style on the one hand، and how it caused the interaction of the reader on the other.Hence، this study relied on the descriptive analytical approach as a statement to form the phenomenon and a reveal of the poetic vision presented on its weaving.
This is based on the qualitative description of the phenomenon represented by the text، and also the quantitative description of it، but not in a digital way but in a way that broadcasts the phenomenon of paradox or its spread، based on the realities of life، and from them to the creative realities of the excellence of the poet، so the use of the approach of this approach so that objective results can be reached as far as possible. The importance of this study lies in being a subjective experience، and at the same time dependent on the self-creation، and therefore it supports the descriptive analytical approach as both subjective and subjective، or rather creative subjective overall.

Keywords: Formation; Abu Firas al-Hamdani; Vision; Poetic attempt; Paradox.

١. المقدمة

١.١. إشكالية المفارقة:

تتناول هذه الدراسة جانبًا من الصراعات التي تدور بين الأمراء في حقبة من أخص حقب العصر العباسي الثاني تفردا و إبداعًا، صراع نشب بين سيف الدولة وأبي فراس الحمداني، مثلته قصيدة (فخر وعتاب) لأبي فراس الحمداني، التي تحمل في طياتها جانبًا من المشاعر السَّامية، والأحاسيس الصَّادقة، والعِتاب الرَّقيق. إنها تصور الصِّراع الذي يدور في نفس الشَّاعر وبين ما يتوق إليه من عِزة وسيادة وما يعيشه من ذُل الأسر، وما يحمله قلبه من حُبٍّ لابن عمه، وما قُوبل به من تباطؤ في فدائه. وفي المفارقة اللفظيَّة يتم تصوير الصِّراعات من غير تصنع ولا تكلف؛ إذ إنَّ هذه المعاناة تقتفي أسلوب الشَّاعِر ولُغته فى هذه التجربة بكل تناقضاتها.

وتُعدُّ المفارقة اللفظيَّة من أشهر أنواع المفارقات، بل أساس عام لكل نمط من أنماط المفارقة، وهى تستند فى الأساس على معنيين فى النَّص: الأول معنى حرفي، أما الثَّانى فهو سياقي؛ يُفهم من النَّص. حيث "تظهر دِلالة العمل الأدبى فى التَّناقض بين معانيه أكثر مما تظهر فى الوحدة والتَّناسق بين هذه المعانى، فالأسلوب غير المباشر يحمل أبعادا غائبة يتوقف النَّاقد عند هذه الأبعاد الغائبة، فيمكنه الكشف عما لم يقل.[١] أو ما تتضمنه السياقات الضمنية خلف اللغة الظاهرة.

ولعل القيمة الأدبية لظاهرة المفارقة تكمن في أنَّها تحقق توازنًا فى حياة الشَّاعِر. فلعل عدم التلاؤم فى حياته كان دافعًا لإبداعه الشِّعرى؛ وإن "هناك –فى الغالب– تلازمًا بين الإبداع الفنى والإخفاق فيما تواضع عليه

١) ينظر: وفاء كمَالو: تناقضات الوعى الفِكرى فى تجربة الإبداع، ص٣٧.

النَّاس من أمور الحياة"[1]، بل إن كثيرا من التجارب الشعرية تمثل صراعا حياتيا، سواء في حالة من التناقض أو التوافق، تنتهي في كلا الأمرين بحالة من الإفراغ النفسي و استراحة الذات.

١.٢. أهداف الدِّراسة:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق غايتين: أولاهما عرض أبعاد ظاهرة المفارقة اللفظية وكيفية تشكلها وأهميتها في تجربة العمل الأدبي عامة، و الوقوف على توظيفها الفني و الإبداعي في البناء الشعري لقصيدة (فخر وعتاب) لأبي فراس الحمداني؛ وذلك فى محاولة لبرهنة العَلاقة الجدليَّة بين الفِكر والواقع.

أما الغاية الثَّانية؛ فهى كيفية مساعدة هذه التَّقنية فى حدوث التوازن النَّفسى للشاعر بين حالة الثبات والاستقرار التي كان يعيشها في الماضي، و حالة التوتر والوقوع في مأزق الأسر التي يكابدها الآن.

١.٣. أسباب اختيار هذه الإشكالية:

و تتمثل في الآتي:

– أهمية ظاهرة المفارقة في التجربة الإبداعية الخاصة، عند اللجوء إلى هذه الآلية الفنية التي يلجأ إليها المبدع في بعض التجارب، وتشكلها الفني والزمني.

– الإفادة من معطيات المفارقة فى الكشف عن الأنساق المضمرة داخل نص من الفرائد القديمة و هو قصيدة أبي فراس الحمداني، التي خاطب فيها سيف الدولة.

– تجمع ظاهرة المفارقة بين خصوصية الجانب الشكلي (ألفاظ المفارقة) و خصوصية السياق و المعاني المتناقضة و ثنائية البعد الزمني.

١.٤. تساؤلات الدِّراسة:

---

١) عبده بدوى: دِراسة فى نص للمتنبى، مجلة الشِّعر، ع (١٤)، القاهرة، أبريل ١٩٧٩م، ص ٨٥.

و أهمها ما يأتي:

- ما حقيقة ظاهرة المفارقة اللفظية و كيف تشكلت في القصيدة ؟
- ما تأثير المفارقة فى البنيَّة الإبداعيَّة عند الشَّاعر أبى فراس الحمداني؟
- إلى أى مدى عكست التجربة الشعرية تجربته الحياتية بتناقضاتها ؟
- كيف شكل الحدث ثنائية من التناقض لهذه التجربة في هذه القصيدة؟
- كيف شكلت ثنائية الموقف ثنائية زمنية حدثية عبر بنية النص الشعري؟

١.٥. منهج الدِّراسة:

وقد اعتمدت هذه المحاورة على المنهج النقدي التحليلي؛ بيانًا لتشكيل الظاهرة، و كشفًا للرؤية الشعرية التي تضمنتها، مع الإفادة بالعديد من المصادر و الدراسات التي بينت طبيعة الظاهرة وحقيقة حضورها في النص الشعري، و أهمها: موسوعة شعراء العصر العباسي لعبد عون الروضان، والشِّعر في رحاب سيف الدولة لعبد الجبار سعود محمود، وعدد من الدراسات الحديثة في المفارقة عامة، نحو: المفارقة في الشعر العربي الحديث لناصر شبانة، و المفارقة القرآنية لمحمد العبد، و كذلك المفارقة في القص العربي المعاصر لسيزا قاسم.

١.٦. المحتوى:

بناء على ما سبق قسم هذا البحث إلى مقدمة و مدخل و ثلاثة مباحث، و تلتها الخاتمة، التي تتضمن أهم نتائج البحث. فعالجت المقدمة إشكالية المفارقة، وأهداف الدِّراسة، و أسباب اختيار هذه الإشكالية، و تساؤلاتها، و منهج الدِّراسة، والمحتوى العام. أما مدخل البحث؛ فتناول الشخصية و شعرها، بعنوان: أبو فراس الحمداني: حياته و شعره

وجاءت المباحث على النحو الآتي:

- **المبحث الأول:** المفارقة بين المفهوم و البنية

- **المبحث الثاني:** السياق الزمني لحدث المفارقة بين الماضي والحاضر في تجربة أبي فراس
- **المبحث الثالث:** بنية المفارقة وعناصرها في قصيدة (فخر وعتاب) لأبي فراس الحمداني
- ثم ذيل البحث بالخاتمة بما توصل البحث إليه من نتائج.

- مدخل: أبو فراس الحمداني: حياته وشعره

١. أبو فراس الحمداني اسمًا و نسبًا:

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون التغلبي[١]ابن سيف الدولة، وكني بأبى فراس، و الفِراس هو: الأسد[٢]وهذه الكنية تدل على شجاعته وفروسيته. و قد وُلد أبو فراس في ربيع الأول سنة ٣٢٠ هـ[٣]، ولم تذكر كُتب التَّراجم مكان ولادته، ولكن المرجح أنْ تكون بالموصل؛ لأنَّ والده كان واليًا عليها في ذلك التاريخ. و أبوه هو أبو العلاء سعيد، وكان أميرًا من أمراء بني حمدان، وقد كان فارسًا شجاعًا، ولاه الخليفة المقتدر عدة ولايات، واعتمد عليه في القضاء على العديد من الفتن. وتولى السُّلطة مع أخيه نصر على الموصل من سنة ٣١٨ هـ إلى سنة ٣٢٣هـ . أما عن نسب أمه؛ فقد ورد ما يشير إليه في شعره، حيث يذكر أنها روميَّة الأصل بقوله: (الوافر)

وأعمامي ربيعة وهي رصيد...وأخوالي بلصفر وهي غلب [٤]

ويقول في ذلك –أيضا– : (الطويل)

إذا خفت من أخوالي الروم خطة تخوفت من أعمامي العرب أربعا[٥]

ومن أشعاره– كذلك– ما يدل على أنَّه واحد لأمه، وذلك عندما قال مخاطبًا سيف الدولة:(المنسرح)

---

١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزَّمان، ٥٨/٢.
٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ف، ر، س)، ص ١٦.
٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزَّمان، ٥٨/٢.
٤) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، ص ٤٩.
٥) أديوانه، ص ١٨٤.
٦) ديوانه، ص ٢٠٩.

بِـــــأَيِّ عُـــــذرٍ رَدَدتَ والهَـــــةً عليـك دون الـورى معولهـا [1]

جاءتـــــك تمتـــــاح رد واحـــــدها ينتظـر النـاس كيـف تغفلهـا

ونشأ أبو فراس يتيمًا، ربته أمه وكانت تنتقل به من مكان إلى مكان، من الموصل إلى آمد إلى ميافارقين، إلى ماردين، إلى الرّقة، وعطف عليه ابن عمه علي، وهو المُلَقب بسيف الدَّولة، وكان زوج أخته. وكان يحكم حمص وحلب، واتخذ حلب مقامًا له، وأخذ معه بني عمه وبناته، وكان ضمنَهم أبو فراس، وسنة آنئذٍ ثلاثة عشر عامًا.

ولما بلغ أبو فراس عشرين من عمره ولاه سيف الدَّولة إمرة منبج وحران وأعمالهما، فقام بالأمر خير قيام، وكان فارسًا وشاعرًا، قام بغارات كثيرة لتأديب الرُّوم عليه كذلك وكان يصدهم.[2]

وله أختان تزوجت إحداهما سيف الدولة، وتزوجت الأخرى أبا العشائر.

واعتز أبو فراس بكريم نسبه فقال:

لئن خلق الأنام لحسو كأسٍ ومزمـــــــار وطنبـــــــور وعـــــــود

فلـــم يخلـــق بنـــو حمـــدان إلا لمجـــــــد أو لبـــــــأس أو لجـــــــودِ[3]

- نشأته و مكانته:

وُلد أبو فراس في أحضان أسرة كريمة، وعندما قُتل والده كان في الثالثة من عمره، فاحتضنته أمه[4] عناية، ثم تولاه ابن عمه سيف الدولة بالعطف

---

١) ديوانه، ص ٢٤٦.

) انظر: شعبان محمد مرسى: قراءات فى الفنون الأدبيَّة (خلال العصور ٢العباسيَّة)، ص ٧٧- ٧٨.

٣) الثَّعالبى: يتيمة الدَّهر فى محاسن أهل العصر،١/٤٤.

٤) عبد عون الروضان: موسوعة شعراء العصر العباسى،٢/٥٥.

والرِّعاية، وعندما قدم إلى حلب أميرًا عليها، نقل معه أبا فراس وأمه من الموصل إلى حلب سنة ٣٣٣ هـ، وقد صرح بذلك أبو فراس في أشعاره، فقال:

فمن سعيد بن حمدان ولادته ومن علي بن عبد الله سائره

لقد فقدت أبي طفلا فكان أبي من الرجال كريم العود ناضره[١]

وفي ظلال سيف الدولة الحمداني نشأ الشاعر وترعرع بين أبهة الملك وعزة السلطان، وقد تتلمذ لابن خالويه الذي كان مؤدبًا لبني حمدان، وأدخله سيف الدولة عرين الأبطال، وعلَّمه فنون الفروسيَّة والقتال، وكان أبو فراس أبيَّ النَّفْس، سليم الطبع، كريم الخُلق، جامعًا بين أدبيّ السيف والقلم.

كان سيف الدولة معجبًا بمحاسنه، مؤثرًا له على سائر قومه، فاصطفاه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه على أعماله، وعندما قوي ساعده واشتد عوده، ولاه سيف الدولة إمارة منبج، وما حولها سنة ٣٣٦ هـ.[٢] أما عن مكانته في مجتمعه؛ فقد قال عنه الثعالبي: (كان فرد دهره، وشمس عصره أدبًا وفضلًا وكرمًا ونبلًا) [٣] وقال ابن خالويه: مَنْ حلَّ من الشرف السامي، والحسب النامي، والفضل الرَّائع، والأدب البارع، والشجاعة المشهورة والسماحة المأثورة، محل الأمير أبي فراس الحارس بن سعيد رحمه الله.[٤] و قال الثعالبي عن شعرِه: قد أطلت عنان الاختيار من محاسن شِعر أبي فراس وما محاسن شيء كلّه حسن.[٥]

---

١) سعود محمود عبد الجبار: الشِّعر فى رِحاب سيف الدَّولة، ص ٨٠.
٢) الثَّعالبى: يتيمة الدَّهر فى محاسن أهل العصر، ١/٣٥.
٣) المصدر السابق، ١/٣٤.
٤) المصدر السابق، ١/٥٧.
٥) المصدر السابق، ١/١١٢.

- **شِعره و أهم خصائصه :**

يعد شعر أبي فراس مثالا للشِّعر القديم متانة وأسلوبًا إلَّا أنَّ عليه رِقة الطَّبع وَسِمَه الظرف وعِزة المُلك، ولم تجتمع هذه الخِلال إلَّا في شِعر عبد الله بن المعتز، وكان الصحاب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك و ختم بملك.[١] ؛يَعْنِى أنَّه بدأ بامرىء القيس، وانتهى بأبى فراس.

و فى شِعر أبى فراس تجد شخصيته المستقلة واضحة، فلم يكن يتكسب بشِعره، إنَّما كان يُعَبِّر عن خواطره، ويبدي آلامه وآماله، ولذلك يبدو فيه عنصر الصِّدق، وهو الرُّكن الأساسي فى الأدب الحى."[٢] ودليل على شاعرية حقيقية.

١) تاريخ الأدب العربى: أحمد حسن الزَّيات: ص ٣٠٣.

٢) شعبان محمد مرسى: قِراءات فى الفنون الأدبيَّة (خلال العصور العباسيَّة)، ص ٧٨.

المبحث الأول

المفارقة بين المفهوم و البنية

- مفهوم المفارقة:

تُعْرَفُ المفارقة في لسان العرب[١]: على أنَّها اسم مفعول من (فارق) وجذرها الثلاثي (فرق) ومصدرها (فرق)، والفرق في اللغة بخلاف الجمع، فهو – إذن – تفريق ما بين شيئين، ومنه: مفرق الطريق، أي متشعبه الذي يتشعب من طريق آخر. و يُقال: فارق الشيء مفارقة، وفراقًا، أي باينه، وفارق فلان امرأته مفارقة وفراقًا باينها وافترق عنها.

وفي مقياس اللغة: والجذر (الفرق) أصيل فـ(الفاء والرَّاء والقاف) أصيل صحيح يدل على تمييز بين شيئين.[٢] وجاء في أساس البلاغة للزمخشري[٣]:وفرق لي الطريق فروقًا والفرق انفراقًا، إذا اتجه لك طريقان، فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق أفرق بيِّن، وضم تفاريق متاعه؛ أي ما تفرق منه.

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة : فارق يفارق مفارقة وفراقاء فارق فلانًا، أي ابتعد عنه: باعده، انفصل عنه وتركه، وردت في القرآن الكريم في الآيات: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٤]. وفي قوله– تعالى–: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ﴾ عن طريق المعاني المختلفة لجذر الكلمة (فرق) إلَّا أنَّها تشترك في الاختلاف والتَّنافر والتضاد.

---

١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ف. ر. ق)، ١٢٠/٥.
٢) ابن فارس: مقياس الُّغة، ٤٩٣/٤.
٣) الزَّمخشرى: أساس البلاغة، ٢٠/٢.
٤) سورة الطَّلاق، آية (٢).

- **المفارقة اللفظيَّة اصطلاحا و توظيفا :**

المقصود بها أنَّ المعنى الظاهر للفظ يغاير المعنى العميق ويناقضه، ومن ثمَّ تقوم لغة النص و سياقه بتشكيل هذا الأسلوب. والمفارقة اللفظية في أبسط تعريف لها هي: شكل من أشكال القول يُساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر، غالبًا ما يكون مخالفًا للمعنى السَّطحي الظاهر.[١]

وهذا النوع من المفارقة يقول عنه ناصر شبانه إنَّها تحظى بنصيب الأسد:"يبدو أنَّ المفارقة اللفظية تحظى بنصيب الأسد من تعريف المفارقة بشكل عام، ولذلك ليس من الغريب أنْ تبدو كالقاسم المشترك بين جميع من كتبوا عن المفارقة وأشكالِها، فهي الشَّكل الأبرز و الأشهر من أشكال المفارقة واحتلت مساحة لا بأس بها في دراسات المفارقة وبحوثها.[٢]و هو ما سعى لتوظيفه عدد من لدارسين و النقاد.

ويُعرفها العبد بقوله: والمفارقة اللفظيَّة في أبسط تعريف لها هي شكل من أشكال القول، يُساق فيها معنى ما في حين يقصد معنى آخر، يخالف –غالبًا – المعنى السَّطحي الظاهر)[٣]، أي أنَّ هذا النَّوع ينشأ من كون الدَّال يؤدي مدلولين نقيضين، **الأول** ظاهر **والثاني** خفي، وهي تختلف عن المجاز والاستعارة في اشتمالها على قرينة توجه انتباه القاري نحو ما يريده صانع المفارقة.[٤]

و أشبه بهذا القول ما يورده نعمان عبد السميع المتولي: المفارقة اللفظيَّة هي التي يكون بها المعنى الظَّاهر واضحا، و لا يتسم بالغموض وله قوة دلاليَّة مؤثرة، وكثير ما يكون المعنى فيها هجوميًّا، خاصة في شِعر الهجاء،

---

١) سيزا قاسم: المفارقة فى القص العربى المعاصر، ص ١٤٤.
٢) ناصر شبانة: المفارقة فى الشِّعر العربى الحديث، ص ٦٤.
٣) محمد العبد: المفارقة القرآنيَّة، ص ٥٤.
٤) ناصر شبانة، المصدر السابق، ص ٦٤.

وهذه المفارقة يتعمدها الشَّاعر ويخطط لها، عبر التَّضاد بين المظهر والمخبر.[1]

وعلى هذا الأساس بدت مفارقات لفظية عدة في قصيدة (فخر وعتاب) غلب عليها أنها تمثل نموذجا لازدواجية التعبير. حيث عندما يتلقى المتلقي هذه الحالة يدرك أن ظاهر اللفظ في كل جانب له معنى مختص ، يحملهما كيان واحد هو السياق. فينبغي على المتلقي أن يدرك الانتقال من الحدث اللغوي المجرد ، التي تشير إليه بعض ألفاظ المفارقة إلى الحدث المقصود والمغزى المراد من الجمع بين المتناقضين.

- **تشكيل المفارقة وعناصرها:**

إنّ المفارقة عند أبي فراس لم تكن نمطا عشوائيا غير مقصود لتجربته ، بل هي بناء كامل يمثل بنيةمنسجمة ومجمعة لمجموعة مواقف نفسية وصراعات في الذاكرة. يشكلها سياق تجربة حياتية ممتدة، تسيطر عليها نزعة الفخر والعز و القوة و السيادة، ثم انقلاب وتقبات الحياة ومن ثم تتماهى كل هذه المتعرجات في صور مفارقات شعرية معقدة. و تشكيلها ألفاظ و معاني تضمنتها أشعارأبي فراس و تجربته العامة مع سيف الدولة.

- مفارقات الذات (الشاعر/ الشالكي/ الأمير / الأسير/ صاحب السلطة / الضعيف..)
- الزمن (الماضي / الحاضر .. الذكرات الجميلة / واقع مؤلم)
- السياق المكاني (قصر / سجن)
- السياق المقامي (العز/ الذل .. وثير الثياب /رقة الحال والفاقة.. السماع والإنصات/ التجاهل و الغفلة عنه.. الغنى / فاقةالاحتياج للافتداء)

---

١) نعمان عبد السَّميع المتولى: المفارقة اللُّغويَّة فى الدِّراسات الغربيَّة والتُّوراث العربى القديم، ١/٤٥.

و شعرية أبي فراس مشبعة بتلك المفارقات وتشكيلاتها، التي تأتي المفارقة اللفظية أهم مشكل لها، حتى جاوزت بنيتها اللفظية المجردة لتنتقل بها من التعبيرات المباشرة والكلمات المؤثرة إلى حالة وسمة و أسلوبا ؛ "لتصبح أسّا قارّاً في كينونته النفسية والثقافية، ورؤيته لواقعه المعيش، ووسيلة ايحائية لأبعاد تجربته الشعرية؛ نظراً لما تكتنفه المفارقة بوصفها أسلوباً فنياً وظاهرة لغوية من كثافة شعورية تعبيرية عالية تستغور خفايا النفس وتستشرف آفاق التأثير الجمالي والالتذاذ الفكري والشعوري.[١]

١) عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص ٣٦-٣٧.

المبحث الثاني

السياق الزمني لحدث المفارقة بين الماضي والحاضر في تجربة أبي فراس

١. الحدث الكلي (الإمارة و الأسر) و أبعاده

اختلف المؤرخون في قصة أسره، فمنهم من ذهب إلى أنَّه أُسر مرتين الأولى سنة ٣٤٨ هـ، والثانية سنة ٣٥١ هـ، ومنهم من ذهب إلى أنَّه أُسر مَرَّة واحدة سنة ٣٥١ هـ .و يرى ابن خالويه أنَّ أبا فراس أُسر سنة ٣٥١ هـ، أثناء خروجه للصيد في عدد يسير من أصحابه، فالتقى بابن أخت ملِك الرُّوم، الذي خرج في ألْف فارس إلى نواحي منبج، فنشبت بينهما معركة شديدة[١] غير متكافئة من ناحية العدد، ثبت فيها أبو فراس حتى أثخن بالجراح وأُسر[٢].

أما ابن خلكان فإنَّه يذهب إلى أنَّه أُسر مرتين: الأولى: بمغارة الكحل في سنة ٣٤٨ هـ بالقرب من خرشنة، ويقول: إنَّه عندما أُسر كان راكبًا فرسه، فركضه برجله فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات، والثانية: على مقربة من منبج في شوال سنة ٣٥١ هـ، ويقول حملوه إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين[٣].

و مما يؤكد رواية ابن خالويه: أنَّ أبا فراس لم يذكر في شِعره أنَّه أُسر غير مرة واحدة. حيث ذكر أبو فراس أنَّ الرُّوم أحسنوا معاملته وأكرموه أول الأسر، فقال :(الطويل)

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حم القضاء على أمري فليس له بر يقيه ولا بحر

---

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه شرح د. يوسُف شكرى سرحان، ١/ ٧.

٢) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، ١/ ٧٥.

٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزَّمان، ١/ ٦١.

يمنـــون أن خلـــوا ثيـــابي وإنمـــا علـى ثيـابي مـن دمـائهم حمـر [1]

ثم بعد ذلك تغيرت معاملتهم له، فوضعوه في مكان ضيق و ألبسوه الثياب الخشنة غير ما اعتاده، وصار لا ينتقل من مكان إلى مكان إلَّا بقيده، وفارقت وجهه سِمات الجمال، فقال مخاطبًا سيف الدولة: (المنسرح)

يـا واسـع الـدار كيـف توسـعها ونحـن في صـخرة تزلزلهـا
يـا نـاعم الثـوب كيـف تبدلـه ثيابنـا الصـوف مـا تبـدلها
يـا راكـب الخيـل لـو بصـرت بنـا نحمـل أقيادنـا وننقلهـا
رأيـت في الضـر أوجهـا كرمـت فـارق فيـك الجمـال أجملهـا
قـد أثـر الـدهر في محاسـنها تعرفهـا تـارة وتجهلـها[2]

قضى أبو فراس في الأَسْر أربع سنين، وقد تأخر سيف الدولة في فدائه، ولابد لهذا التأخير من أسباب، من المرجح أنْ يكون وضع الدولة في أسباب التأخير تلك الفترة، وهزيمة الرُّوم له وتدمير حصونه واحدًا من الأسباب، وسبب آخر ذَكَرَه أبو فراس في أشعاره هو: الوشاة الذين عملوا على إفساد العَلاقة بين الأمير والأمير الشاَّعر وهو في الأَسر.

و بالرجوع إلى ديوان أبي فراس يلحظ أنَّ هناك العديد من الأشعار، التي كتبها أبو فراس التي تؤكد أنَّ هناك بعض الحساد من عشيرته كانوا يحاولون- دائمًا- أنْ يوغروا صدر سيف الدولة عليه، وقال إنَّ ذلك كان دأبهم في وجوده وفي غيابه. انظر قوله: (الطويل)

تمنيـتم أن لـو تفقـدوني وإنمـا تمنيـتم أن تفقـدوا الغـزا أصـيدا
أمـا أنـا أعلـى مـن تعـدون همـة وإن كنـت أدنى مـن تعـدون مولـدا

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، ٢/ ٢١٢.
٢) ديوانه،٣/٣٠٣.

إلى الله اشـكوا عصـبة مـن عشـيرتي يسيؤون لي في القول غيبا ومشهدا
وإن حـاربوا كنـت المجـن أمـامهم وإن ضـاربوا كنـت المهنـد واليـدا
وإن نـاب خطـب أو ألمـت ملمـة جعلت لهم نفسي وما ملكت فدا[1]

و ظاهر الأمر أن مسألة تأخير الأمير لفداء أبي فراس كان لها أثرٌ كبيرٌ فى نفس الشَّاعر. ويلحظ القارئ في ديوان أبي فراس أنَّه لم يمدح الأمير سيف الدَّولة بعد قدومه من الأَسر، وكذلك لم يرثه بعد وفاته .

وقد فدى سيف الدولة أبا فراس في سنة ٣٥٥ هـ، في شوال مقابل ستمائة ألف دينار رومية. الجدير بالذِّكر– هنا– أنَّ أَسر أبي فراس قد أهدى الشِّعر العربي أروع ما جادت به قريحته من قصائد، نتجت من تجربة شعوريَّة صادقة، نبعت من وجدانه وعَبَّر عنها لسانه وعُرفت تلك المجموعة الشِّعريَّة النادرة بالرُّوميات، وهي تُعَدُّ من عيون الشِّعر العربي، قال الثعالبي: (لِعَمْرِي إنَّها– كما قرأت لبعض البلغاء– لو سمعته الوحش أنست، أو خوطبت به الخرس نطقت أو استدعى به الطَّير نزلت)[2].

عاد أبو فراس من الأَسر سنة ٣٥٥هـ، وبعد عودته بعام تُوفي ابن عمه سِيف الدَّولة، وتولى زمام الأمر من بعده ابنه أبو المعالي، يساعده غلام أبيه قرعويه، مما أثار غضب أبي فراس فعزم على التغلب على حمص، و وصل خبره إلى أبو المعالي فأرسل إليه قرعويه وقتله في شهر ربيع الآخر في سنة ٣٥٧ هـ، في ضيعة تُعرف بصدد، وقيل أخذ رأسه و بقيت جثته مطروحة في البرية إلى أنْ جاء بعض الأعراب فكفَّنه ودفنه[3].

---

١) ديوانه، ٨٥/١.
٢) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون،٤/ ٣١٠.
٣) الثَّعالبى: يتيمة الدَّهر فى محاسن أهل العصر، ١١٢/١.

وقد قيل أنَّه فى ريعان شبابه ضربوه ضربة قاتلة أدت إلى وفاته عن سبعة وثلاثين عامًا، سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، وقبل أنْ يلفظ نفسه الأخير أوصى ابنته: لا بالصَّبر الجميل على مصابها فيه، وإنَّما أوصاها فى صراحة بالبكاء النَّاتج عليه، والرِّثاء الحار لشبابه الذى لم يتمتع به، فيقول:

نُوحى علىَّ بحسرةٍ من خلف سترك والحجاب
قولى إذا ناديتنى وعَبِيتُ عن ردِّ الجواب
زين الشَّباب أبو فراسٍ لم يُمَتَّعْ بالشَّباب !![1]

٢. الحدث (الإمارة و الأسر) و تقسيمات الزمن

تنقسم تجربة الأسر و ما قبله عند أبي فراس إلى ثلاثة أزمنة متصلة

- **الزمن الحدثي الأصل المتذكر** (الماضي):

ويمثله زمن ارتباطه سيف الدولة الحمداني، و حياته الأولى في أبهة الملك و الإمارة وولايته لإمارة منبج، وما حولها.

- **الزمن المضاد (الحاضر)**

ويمثله سنوات الأسر الأربع ومعاناة تأخير الفدا له.

- **الزمن التأملي** (المغاير للواقع)

ويمثله دوما التذكير بمآسره وبطولاته مع ابن عمه، حتى إن أسلوب الشرط في قوله الآتي يكشف استعداده لعوده أفعاله وزمنه في المستقبل إذا تكررت الأحداث؛ فهو على استعداد لتقديم ما قدمه في الماضي، كما جاء قوله السابق:

إن نابَ خَطبٌ أَو أَلَمَّت مُلِمَّةٌ جَعَلتُ لَهُم نَفسي وَما مَلَكَت فِدا
يَوَدّونَ أَن لُيُصِروني سَفاهَةً وَلَو غِبتُ عَن أَمرٍ تَرَكتُهُمُ سُدى
مَعالٍ لَهُم لَو أَنصَفوا في جَمالِها وَحَظٌّ لِنَفسي اليَومَ وَهوَ لَهُم غَدا[2]

---

١) مصطفى أمين جاهين: من وجدان الأدباء، ص ٤٧-٤٦.

٢) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، ٨٥/١.

المبحث الثالث

بنية المفارقة وعناصرها في قصيدة (فخر وعتاب)

لأبي فراس الحمداني:

- **مدخل:**

قصيدة فخر وعتاب لأبي فراس تعكس جانبًا بارزًا من تناقض الواقع، الذي عاشه الشَّاعر من ذُل في الأسر ومرارة العجز عن فداء نفسه منه دون المعين لنجدته، خاصة أنه الأمير المدلل مكانة و نسبا، وما كان عليه من العِزَّة والسِّيادة ، وما يحمله قلبه من حُب و ولاء لابن عمه الأمير ، وما يلاحظه عليه من تباطؤ في فدائه هذا من جانب. ولأنَّ التَّوقف عند قدرة أبى فراس الحمداني اللُّغوية شىء من أهم الأشياء فى دِراسة شِعره.

و هذه القصيدة تتضمن جانبًا أخلاقيًّا من حياة أبى فراس الحمداني حيال سلوك ابن عمه – هذا السلوك غير المتوقع منه– سيف الدَّولة الذى شدَّد من جفوته وأظهر له غِلظة لا تتفق مع حب الشَّاعر له ولا تتفق –أيضًا – مع مساندات الشاعر الفارس الحربيَّة له. وعلى ذلك كان سلوك الشَّعر تجاه ابن عمه غير متوقع، فهو يظل على حبه له على الرغم مما عاناه من قسوته، فيفخر بنفسه و يعاتبه فى الوقت ذاته.

١. نصية المفارقة: قصيدة "فخر وعتاب لأبي فراس:[١] (الطويل)

و جاءت تتابعها عرضا لحدث المفارقة على النحو الآتي:

أما لجميل عندكن ثواب ... ولا لمسيء عندكن متابُ؟

لقد ضل من تحوي هواة خريدة ... وقد ذل مَنْ تقضي عليه كعابُ

ولكني والحمد لله حازمٌ ... أعز إذا ذلت لهن رقابُ

---

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، ١٦٦/٢.

ولا تملـــك الحســـناء قلـــبي كلـــه ... وإن شملتهـــا رقـــةٌ وشـــبابُ

وأجري فلا أُعطي الهوى فضل مِقودي ... وأهفـــو ولا يخفـــى علـــي صـــوابُ

إذا الخـــالُ لم يهجـــرك إلا ملالـــة ... فلـــيس لـــه إلا الفـــراق عتـــابُ

إذا لم أجـــد مـــن خُلَّـــةٍ مـــا أريـــده ... فعنـــدي لأخـــرى عزمـــة وركـــابُ

وقـــور وأحـــداث الزمـــان تَنوشُـــنى ... وللمـــوت حـــولي جيئـــة وذهـــابُ

وقـــد صـــار هـــذا النـــاس إلا أقلهـــم ... ذِئابًـــا علـــى أجســـادهن ثيـــابُ

إلى الله أشـــكو أننـــا بمنـــازلٍ ... تَحَكَّـــمُ في آســـادهنَّ كـــلابُ

تمـــر الليـــالي لـــيس للنفـــع موضـــع ... لـــدي، ولا للمعتفـــين جنـــابُ

ولا شـــد لي ســـرج علـــى ظهـــر ســـابح ... ولا ضُـــربت لي بـــالعراء قبـــابُ

ولا برقـــت لي في اللقـــاء قواطـــع ... ولا لمعـــت لي في الحـــروب حـــرابُ

ســـتذكر أيـــامي نمـــيرٌ وعـــامرٌ ... وكعـــبٌ علـــى علاتهـــا وكـــلابُ

أنـــا الجـــار لا زادي بطـــيء علـــيهم ... ولا دون مـــالي للحـــوادث بـــابُ

ولا أطلـــب العـــوراء مـــنهم أصـــيبها ... ولا عـــورتي للطـــالبين تُصـــابُ

وَأســـطو وحـــبي ثابـــت في صـــدورهم ... وأحلـــم عـــن جُهـــالهم وأهـــابُ

بـني عمنـا مـا يصـنع السـيف في الـوغى ... إذا فُـــلَّ منـــه مضـــربٌ وذبـــابُ

بـــني عمنـــا لا تنكـــروا الحـــق إننـــا ... شـــداد علـــى غـــير الهـــوان صِـــلابُ

بـــني عمنـــا نحـــن الســـواعد والظـــبى ... ويوشـــكُ يومًـــا أنْ يكـــون ضـــرابُ

وَمـــا أَدَّعـــي مـــا يَعلَـــمُ اللهُ غَـــيرَه ... رِحـــابُ عَلِـــيٍّ لِلعُفـــاةِ رِحـــابُ.

وأفعالـــــه للـــــراغبين كريمـــــةٌ ... وأموالـــــهُ للطـــــالبين نِهـــــابُ

ولكـــن نَبـــا منـــه بكفـــي صـــارمٌ ... وأظلـــم في عيـــني منـــه شـــهابُ

وأبطـــأ عـــني والمنايـــا ســـريعةٌ ... وللمـــوت ظفـــر قـــد أطـــل ونـــابُ
فـــإن لم يكـــن ودّ قـــديم نعـــده ... ولا نســـبٌ بـــين الرجـــال قُـــرابُ
فَأَحـــوَطُ لِلإِســـلامِ أَن لا يُضـــيعَني ... ولي عنـــه فيـــه حوطـــة ومنـــابُ
ولكنـــني راض علـــى كـــل حالـــةٍ ... لـــيعلم أي الحـــالتين ســـرابُ
ومـــا زلـــت أرضـــى بالقليـــل محبـــةً ... لـــديك ومـــا دون الكثـــير حجـــاب
وأطلـــب إبقـــاءً علـــى الـــودِّ أرضـــهُ ... وذِكـــرى مُـــنًى في غيرهـــا وطِـــلابُ
كـــذاك الـــوداد المحـــض لا يرتجـــى لـــه ... ثـــواب ولا يُخشـــى عليـــه عِقـــابُ
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع ... وفي كـــل يـــوم لفتـــةٌ وخطـــابُ
فكيـــف وفيمـــا بيننـــا مُلـــكُ قيصـــر ... وللبحـــر حـــولي زخـــرةٌ وعُبـــابُ
أَمِـــن بعـــد بـــذل الـــنفس فيمـــا تريـــده ... أُثـــابُ بمـــرِّ العتـــب حـــين أُثـــابُ
فليتـــك تحلـــو، والحيـــاة مريـــرةٌ ... وليتـــك ترضـــى والأنـــام غِضـــابُ
وليـــت الـــذي بيـــني وبينـــك عـــامرٌ ... وبيـــني وبـــين العـــالمين خـــرابُ

- **النص ومفارقة ثنائية الحدث:**

هذه إحدى روميات أبي فراس الحمداني من قصائده الوجدانية الحزينة، التي جمعت حالتين نفسيتين غير متشاكلتين، بدأها – في تقارب مع النمط العربي التقليدي في بنية القصيدة – بذِكر النساء والتغزل بهن، و كان غزله قائمًا على العتاب، حتى التغزل بالنساء كان له وقته، بقوله: "**أنا حازم ضع الأمور في مواضعها.**" وهذا الاعتراف من الشاعر ليس بمعنى أنَّه يكره المرأة، فالمرأة قبل أن تكون حبيبه كانت الأم، وأمه كانت أعز الناس إليه .

وعلى الرغم من اختلاف نظرة الشاعر للمرأة بعد الأَسر، فإنَّه يكنُّ لها كل الحُب والتقدير، وسرعان ما تخلص من الغزل إلى الفخر، فهو الرجل القوي الحازم ، يثبت قدميه في ساحات المعارك، والموت يحيط به من كل

جانب، و كل من يعرفه يشهد له بذلك، سواء أكان ذلك العدو أم كان الصديق. وعن طريق الفخر يصل إلى عتاب سيف الدولة: **(يا بني عمنا لا تنكروا ما يعرفه الناس)**. وهذا لا يَعْنِي أنَّ سيف الدولة به نقص أو عيب، ولكن كأنه يشير إلى أن لكل جواد كبوة . فعلى الرغم من بذل النَّفْس في سبيل مرضاته فإنه لم يحظ منه سوى اللوم والتقريع، فيقول ليتك ترضى عني ولو غضب الناس عليَّ أجمعين ، وليت حبال المودة تصل ما بيننا ولو انقطع ما بيني وبين البشر كافة.

٢. عناصر المفارقة في قصيدة أبي فراس

ويرى ميويك Muecke أنّ المفارقة قد ظلّت لأكثر من قرنين من الزمن تعدّ "صيغة بلاغية بالدرجة الأولى.. و صار تعريف الكلمة:" قول المرء نقيض ما يعنيه " أو " أن تقول شيئاً وتقصد غيره " أو " أن تمدح لكي تذم وتذم لكي تمدح" أو " سخرية وهزء ". ثم صارت تستخدم لتفيد التظاهر، حتى ما لا ينطوي منه على مفارقة، أو تخفيف القول، أو المحاكاة الساخرة.[١] وتطورت المفارقة إلى أن تشمل حالة الصراع الثنائي في النص، حالة الاطمئنان و التشتت و التذبذب، فالبكاء و الفرح، و الخوف و الأمن و الحب و الكره، و الماضي و الحاضر...، إنها الصورة – أيضا – بثنائيتها السخرية و التقدير و الكره و الحب و هي متعددة في قصيدة أبي فراس. و جاءت أبرز عناصرها على النحو الآتي:

٢.١. عتبة النص و نص العتبة:

لقد نظم أبو فراس قصيدته (فخر وعتاب)، و هذه التسمية افتراضية ، مقترنة بموضوعها و شهرتها في شعر صاحبها، فلم تعرف في تلك الفترة للقصيدة تسمية، و ما شاع عن أسماء بعض القصائد عن الشعراء القدامى فكان من وسم النقاد العرب، هذا الوسم الذي ارتبط إما بتسمية عامة معلومة نحو

١) سي. ميويك: المفارقة وصفاتها: موسوعة المصطلح النقدي، ١٤٢/٤.

المعلقات و المذهبات أو اقترنت بقافية أو موضوع أو مطلع معين. و هذه الفريدة من فرائد أبي فراس جاءت مناسبتها عندما عَلِمَ بامتناع سيف الدولة عن إنقاذه من الأَسر إلَّا بعفو عام عن أسرى المسلمين.

هذه القصيدة التي نظَّمها أبو فراس و تشتهر بـ (فخر و عتاب) عندما عَلِمَ بامتناع سيف الدولة عن إنقاذه من الأسر إلَّا بعفو عام عن أسرى المسلمين– كما ذُكِرَ سابقًا–. وكان من المفترض أنْ ينهض إلى خلاصِه من الأسر، لكنَّه تأخر في فدائه، ففي هذه القصيدة يفخر ويعاتب في الوقت نفسه، فكانت أداة الفخر عتاب، و باطن العتاب عزة ، وهنا مفارقة غريبة لا تحدث إلا من ذات قوية، تعرضت لكرب، لكن الكرب لم يضعفها، و لم يأخذها إلى الضعف، ومن ثم تظهر للقارىء جمالية إثارة المفارقة في الجمع بين حالتي التناقض، بين فخر ذاتي و عتاب للمخاطب سيف الدوله بقوله:

بني عمنا نحن السواعد والظبى ... ويوشك يوما أن يكون ضراب
ما أدعي، ما يعلم الله غيره ... رحاب علي للعفاة رحاب
ولكن نبأ منه بكفي صارم ... وأظلم في عيني منه شهاب (١)

و لكنه بعد هذا الحوار العتابي الصادر من نفس قوية سرعان ما يستدرك – بحرف الاستدراك لكن – حقيقة من يخاطب فكأن يحول العتاب إلى عزاء و أن لكل سيف نبوة ، ولكل جواد كبوة. ومن الجدير بالذِّكر أن الشاعر يستهل قصيدته بالمفارقة –أيضًا– ولكن بمفارقة التى تقوم بها النِّساء تجاه الرِّجال، على نحو قوله فى مطلعها هذه القصيدة:

أما لجميل عندكن ثواب ... ولا لمسي عندكن متابُ
لقد ضل من تحوي هواه خريدة ... وقد ذل من تقضي عليه كعابُ
ولكني – و الحمد لله _ حازم ... أعز إذا ذلت لهن رقاب

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه، شرح يوسُف شكرى فرحات، ١/ ٢٤.

فبدأ هذا السياق الشعري بذِكْر النساء والتَّغزل بهن، غزلًا قائمًا على العتاب موحيًا بالغرض الرئيس للقصيدة ، فهو يبدأ بلوم النِّساء على ما فيهن من تعنت على العاشقين؛ إذ يغدرن بهم، فلا يقابلن الإحسان بالإحسان ، وتظهر المفارقة في عدم مقابلة الإحسان بالإحسان (أما لجميل عندكن ثواب) وكذلك لا يقبلن الاعتذار عن الإساءة.

٢.٢. التشكيل اللفظي

و يتمثل في تلك عناصر التضاد بين (المظهر والمخبر)أو(المظهر والحقيقة) [١]الذي يقوم على تظاهر المرء بخلاف ماهو عليه، فصاحب المفارقة(مهيار) يقول شيئاً لكنه في الحقيقة مختلفٌ تماماً، وهذا ما نلمسه في صدور الأبيات التي تمثل المظاهر الخدّاعة والزائفة لأولئك– الممدوحين– المستخفّين بحقّه، في حين تمثل أعجازها الحقيقة الضامرة والمتوارية خلف أستار الرياء، فهم يُظهرون خلاف ما يبطنون. معظم الألفاظ تُعَبِّر عن العواطف بحالاتها العامة، و النبيلة خاصة، نحو (جميل ، متاب ، أعز.....) . و توجد في النص كثير من الصور البيانية كالاستعارات المكنيَّة (لا أعطي الهوى) و(للموت حولي جيئة ذهاب)، بتشبيهه الموت بإنسان فحذف الإنسان ورمز إليه بشي من لوازمه، وهو توظيف مقصود للاستعارة المكنية يوافق مع جو القصيدة والمخاطب باللوم و العتاب ، وكذلك الاستعارات التصريحيَّة على تعددها (أساد وكلاب) و(صار النَّاس ذئاب).

أما المحسنات و المقابلات والطباق فتعج بها القصيدة ، و هي آلية مقصودة تمثل تفعيلا في عدد من صورها لنسق المفارقات الدلالية المعتمدة على الألفاظ المتقابلة، أو دعم حالة على حالة و التركيز عليها، نحو: المقابلات (أما لجميل لديك ثواب) و(لا لمسي لديك متاب)، والطباق في قوله: (أعز و ذلت)، والجناس في (ضل، وذل) و(رحاب ورحاب). هذه الثنائية

١) المفارقة في شعر الرواد: قيس حمزة الخفاجي، ٦٤/٤.

يتشكل على أثرها ثنائية تصويرية و فنية ترسم حالة العز في مقابلة مشهد الذل ...إلخ.

٢.٣. الخداع اللفظي بين طمأنة المظهر و السخرية من الواقع

ومن عناصر المفارقة، حالة الاستعلاء النفسي التي تتسم بها حياة الشاعر، و مثلتها ما تضمنته أشعاره عند الحديث عن بطولات ومعارك و سلطة الإمارة . وفي هذا السياق إشارة إلى استعلاء يقطر ألما لأن السياق العام بعد قليل سيرده إلى حالة المعاناة، وكانه يتحدث وهوفي حالة الغفلة المطمئنة، وتعني انخداع الضحية واتصافها بالسذاجة الفكرية والقناعة البلهاء بمظاهر تتفاوت في درجاتها من الكبرياء والقناعة يصطنعها صاحب المفارقة متبجّحاً بعدم علمه إيّاها على وجه الحقيقة[١] وهكذا كان أبوس فراس في نظم شعره الذي يتحدث بعيدا عن تجربة المعاناة، معحضورها في كل ذكر لحديثه عن ابن عمه سيف الدولة.

كذلك تقوم المفارقة على عنصر التناقض النفسي، حيث يبرز تضاد ثنائية الألم المشوب بالسخرية من الواقع الذي استحال إليه حال الشاعر. فتتضارب العواطف والأفكار في سخرية مُرّة، فيتحدث حديث المطمئن على حاله، الساخر – في الآن نفسه– من واقعه.

و تمثل هذا التناقض في سياقات اعدة للمفارقة سكلتها ألفاظ وعبارات، جاءت على النحو الآتي:

- في قوله: (ولا لمسي عندكن متاب) تظهر المفارقة عَبْر التَّضاد بين المظهر والمخبر في عدم قبول التوبة للمسيء والمفترض والمتوقع، والرفض و القبول، و فسياق الموقف مألوف إلا هنا فقد حدث خلاف

١) المفارقة في شعر الرواد، ٦٤/٤ .

ذلك. وتظهر المفارقة– أيضا– في المقابلة بين الألفاظ (أما لجميل ثواب، ولا لمسيء متاب) .

- و كذلك تظهر مفارقة الاستدراك بقول الشاعر وتنبيهه لمن يسمعه : ولكنّني – والحمد لله – لست ممن يُذل لأحد ، فأنا حازم أضع الأمور في مواضعِها التي تليق بها، فألين في موضع اللين وأشتد في موضع الشِّدة، لا تقودني الأهواء وأبقى مالكًا لزمام أمري وإنْ تاقت نفسي لما تهوى، فالنَّفس بطبيعتها تقود لما تهوى فالإنسان لا يستطيع التَّحكم في مشاعره . والمفارقة –أيضا– تتكشف في التَّضاد بين (أعز إذا ذلت)
- واستخدم الشاعر أسلوب الاستثناء بإخراج الاسم الواقع بعد أداة الاستثناء من الحُكم الواقع على ما قبلها ، وأشهر هذه الأدوات فى استخدامه لـ (إلَّا) الاستثنائية وهي من الأدوات التي انفردت بقدرتها على تحويل اتجاه المعنى أو إلقائه، مثال ذلك في قوله :

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابا على أجسادهن ثياب[1]

لو استمرَّ الشأَّعر في حديثه دون أداة الاستثناء لكان فيه طعن، فأتى بما يتحذر به من ذلك الطعن فاستثنى بعض الناس؛ كي لا يشمل كل الناس فهنا استعمل الشَّاعر الأداة (إلَّا) في العدول عن حكمه الأول (ذم سيف الدولة) في كلمة (الناس). حين أصبح الغدر سمة عامة فيهم حتى غدوا أشبه بالذِّئاب في حقيقتهم وإنْ تلبسوا بلباس البشر. وتظهر المفارقة في الطِّباق بين اللفظين (النَّاس والذِّئاب).

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ تحكم في آسادهن كلاب[2]

---

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه،١/ ٢٤.

٢) أبى فراس الحمدانى: السابق ، ١/ ٢٥.

- وفي قوله :

فالمفارقة في أنَّ الأسد تتحكم فيه كلاب . فالمعروف أنَّ الآساد هي التي تتحكم في الكلاب . وتظهر المفارقة اللفظية- لافتة- في الطباق بين اللفظين (آساد وكلاب).

- ويتكلم كلام الطَّليق لا كلام المسجون أو الأسير؛ فهو يعتب من يملك الضُّر والنَّفع، والعقاب والجزاء، على نحو قوله:

تمر الليالي ليس للنفع موضع لدي ولا للمعتفين جناب

ولا برقت لي في اللقاء قواطع ولا لمعت لي في الحروب حِراب (١)

حيث لا يضير الشَّاعِر أنَّه محروم في سجنه مما يشتهيه النَّاس من أسباب الرَّاحة و الرفاهة من الطَّعام أو الشراب أو الملبس ؛ إذ تظهر المفارقة ....(يحز في نفسه أنْ يغيب عن ساحة الأحداث وأنْ يُحرم مما اعتاده من نجدة وكرم وبلاء في الحروب).

- والكل يشهد العدو والصديق كما في قول الشاعر:

وأسطو وحبي ثابت في صدورهم وأحلم عن جهالهم وأهابُ(٢)

إنه يتحدث عن قبائل العرب التي طالما خضعت لسطوة سيفه ، ثم واسى جراحهم بكرمه وحلمه وحسن خلقه ، فقد كان لهم خير جار ، خضعت لسطوه و واسى جراحها، فالمفارقة بين (السطو والمواساة) (أسطو وأحلم).

- ومن طريق الفخر يصل الشَّاعر إلى معاتبة سيف الدولة فيقول :

بني عمنا لا تنكروا الحق إننا على غير الهوان صلاب (٣)

---

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه السابق نفسه.

٢) أبى فراس الحمدانى: ديوانه١/ ٣٠.

٣) أبى فراس الحمدانى: ديوانه١/ ٣١.

يعاتب بني عمه فيقول لهم لا تنكروا ما يعرفه كل الناس ، لا تنكروا أنَّنا أقوياء نتحمل كل شيء. واستخدم أداة الاستثناء (غير) ومعروف أنّ الكلام القبل يأتي مخالفًا بعد الذل والهوان . وفى ذلك وسيلة مقارنة بين زمان جميل فارح وزمان شائه قبيح. وتأمل تجاور (تنكروا / الحق) في ظل جمع بين العتاب و طلب أمر على أنه حق لا فضل و لا منحة فيه..

- ويقول –أيضًا– معاتبًا بنى عمومته ، المقصود– هنا– ابن عمه سيف الدَّولة، الذى أحبه كثيرًا، حيث قاتل إلى جانبه فى معارك كثيرة:

بني عمنا نحن السواعد والظبى ... ويوشك يوما أنْ يكون ضراب(١)

- ويواصل عتابه ويقول نحن سواعدكم وسيوفكم التي ستقهر الأعداء وهذا لا يَعْنِي أنَّ بكم نقصًا أو عيبًا. وتأتي هنا المفارقة انتفاء العيب والنقص، فالله يَعْلَم أنَّ سيف الدولة فارس شهم كامل المروءة، بابه مفتوح لكل صاحب حاجة وتأتي المفارقة في و(لكن) الاستدراكية لكل سيف نبوة، ولكل جواد كبوة، فقد قصر في حق أبو فراس الحمداني وأبطأ عن نجدته، وهو أَسير مكبل يختطفه العدو والأسر والمرض والموت يقعد له كل مرصد.

- و يناشد الشَّاعر ابن عمه عن طريق المفارقة فيقول له :

فإن لم يكن ود قديم نعده ... ولا نسب بين الرجال قرابُ
فأحوط للإسلام أن لا يضيعني ... ليعلم أي الحالتين سراب
وما زلت أرضى بالقليل محبة ... لديك، وما دون الكثير حجاب (٢)

فيقول له أنْ يصغي إلى صوت العقل إنْ كان أعرض عن نداء المحبة والقرابة. و لقد استخدم الشاعر (إنْ الشَّرطية) وهي –أيضًا– من الأدوات التي لها القدرة على تحويل اتجاه المعنى أو إلقائه. فالشَّاعر الأسير فارس مجتهد

---

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه١/ ٣١.
٢) أبى فراس الحمدانى: المصدر السابق، ١/ ٢٦.

قضى زهرة شبابه في مدافعة الرُّوم عن تخوم المسلمين ، وهو مع إهمال الأمير له مازال محبًا مُخلصًا يرضى منه بالقليل، وقد منع منه الكثير الذي يستحقه (وما دون الكثير حجاب).

ويقول الشاعر :

كذاك الوداد المحض لا يرتجى له ثواب ولا يخشى عليه عقاب (١)

فالشَّاعر يحب ابن عمه لذاته لا رغبة في عطائه ،ولا رهبة في عقابه . فالمفارقة في أنَّ الود يقابل بالود لكن حدث خلاف ذلك، وتأخر في فك أسره . فكيف لا يتأخر في فك أسره إذا كان يخاف أنْ يهجره وهو بين يديه:

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع وفي كل يوم لفتة وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر وللبحر حولي زحرة وعباب(٢)

فكيف لا أخاف وقد فصلت بيننا أراض واسعة وبحور ذات أمواج

يقول الشَّاعر معاتبًا سيف الدَّولة :

أمن بعد بزل النفس فيما تريده أثاب بمر العتب حين أثابُ (٣)

فتأتي المفارقة بارزة ، إذ بعد بذل النَّفس فى أن يكون عقابه اللوم والتقريع وكان المفروض أن يحظى بحلاوة الرِّضا، لكن حدث خلاف ما توقع. ومن المفارقات استخدامه أداة التَّمني (ليت)؛ لاستحالة المتمني.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

---

١) المصدر السابق نفسه.

٢) أبى فراس الحمدانى: ديوانه: ٢٥/١.

٣) السابق نفسه.

ليـــت الـــذي بيـــني وبينـــك عـــامر وبيـــني وبـــين العـــالمين خـــراب [1]

فيتمنى أنْ يحظى بحلاوة الرِّضاء ولو كان كل شيء في حياته مُر، وأنْ يحظى برضاه ولو غضب النَّاس عليه أجمعين، وأنْ تصل حبال المحبة والقرب ما بينهما ، ولو انقطع ما بينه و بين البشر كافة .

ففي البيت الأول استخدم أسلوب الطِّباق في (تحلو و مريرة) و(ترضى وغضاب)، والمقابلة في البيت الثاني (بيني وبينك عامر، وبيني وبين خراب) فاستخدام اللفظ وضده أو الجمع بين أكثر من لفظين من المفارقات.

ومن جملة ما تَقَدَّم يجب التنبيه على أهمية الوقوف على حقيقة تؤكدها الدِّراسة أنَّ التَّقابل هو تقابل نفسي من لدن الشَّاعر يخرج من داخليته. و أن المفارقة كشاف لها، تخرج ومضاته في صور هذا التناثر المتباعد بين معنى بين الألفاظ.

١) أبى فراس الحمدانى: ديوانه ١/ ٢.

- الخاتمة والنتائج:

تتمثل تقنية المفارقة عند أبى فراس الحمداني فى عَلاقة تكامل بين الزَّمن الماضى والزَّمن الحاضر؛ فنصف يطغي فيه الحاضر المأسوي ونصف يطغي فيه الماضى البهيج، فيحدث التوازن بينهما إذ لا يشكلان ثنائية ضديَّة بقدر ما يمثلان محورًا للتكامل و الاتمام في حقيقة الجمع بينهما، فالحاضر الدَّال على العِتاب هو امتداد لود ومحبة الماضى بين الشَّاعر وابن عمه. و ما جمع حالتي المفارقة إلا من قبيل الجمع بين التدلل هجرا و الإقبال حياء، و هو ما يحول التجربة الشعرية إلى حالة من الدفء و التلاقي مع المتلقي.

ويمكن إجمال أهم النَّتائج بالآتى:

١. تصور المفارقة الصِّراع النَّفسى الذى أصاب الشَّاعر، نتيجة فجوة الاستبدال وتشابك العَلاقات بينه وبين الآخرمن جانب ، و بينه و بين وبين الواقع الذى يعيشه والماضى الذى كان فيه من جانب آخر..
٢. تصوير المفارقة اللفظية حالة و تجربة في ما يحمله قلبه من حب وولاء لابن عمه الأمير وما يلاحظه عليه من تباطؤ عن فدائه.
٣. تصور المفارقة صورة الفارس العربي المتمسك بقيم الشَّهامة ومعايير المروة و حالة الأسر و الترك من قبل المعين.
٤. كما أنَّ المفارقة تصوير للمشاعر السامية والأحاسيس الصادقة ، والعِتاب الرَّقيق والكبرياء المجروحة .
٥. كما أنها تصور التعبير عن الوجدان والمعاناة من غير تصنع ولا تكلف تصويرًا نابعًا عن موهبة شاعر رُزِق موهبة الشِّعر .
٦. بمجئ الفخر والعتاب معًا فى قصيدة واحدة يدل على أنَّه مسك العصا من الوسط لإحداث التوازن والمفارقة بين طرفيها الفخر والعتاب.

٧. يكون للطباق تأثير ملحوظ إذا ما انبثق من بنية المفارقة. ومنه تسيطر على معظم صور أبى فراس الحمداني فكرة التَّضاد التى تتميز بالقدرة الكبيرة على خلخلة عَلاقات الألفة بينه وبين ابن عمه سيف الدَّولة.

و غير ذلك من النتائج و الملاحظات التي قد تبعث على إعادة الوقوف مرارا أمام هذه القصيدة و معطياتها و مضامينها الرائعة.

المصادر والمراجع :

- بدوى (د. عبده): دِراسة فى نص للمتنبى، مجلة الشِّعر، ع (١٤)، القاهرة، أبريل ١٩٧٩م.
- الثَّعالبى: (أبى منصور عبد الملك): يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة ، ط (١)، بيروت دار الكتب ، ١٤٠٣هـ.
- جاهين: (مصطفى أمين): من وجدان الأدباء، ط (١)، القاهرة، مركز العيون السَّبع للنَّشر والخدمات الإعلاميَّة، ١٩٩٣م.
- الحمداني (أبى فراس): ديوان أبي فراس الحمداني ،شرح د. يوسف شكري فرحات، ط (١)،بيروت دار الجيل، ١٤٣١هـ / ١٩٩٣م.
- الخفاجي(قيس حمزة)، المفارقة في شعر الرواد: مطبعة دار الأرقم، العراق– الحلة، ٢٠٠٧م
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر ، دمشق، د.ت.

ابن خلكان (أبى عباس شمس الدِّين أحمد بن أبى بَكْر): وفيات الأعيان وأنباء الزَّمان، تحقيق :إحسان عباس، دار الثَّقافة بيروت.

- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد):أساس البلاغة ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت– لُبنان، دار الكتاب العلميَّة، ١٩٩٨م
- الزَّيات (أحمد حسن): تاريخ الأدب العربي، بيروت، دار الثَّقافة،١٩٧٨م.
- شبانة (ناصر): المفارقة في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢
- العبد (محمد): المفارقة القرآنيَّة دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م

– عبد الجبار (د. سعود محمود): الشِّعر في رحاب سيف الدولة ، مؤسسة الرسالة.د.ت

– عبد عون (الروضان): موسوعة شُعراء العصر العباسي، دار أسامه للنَّشر، د.ت.

– ابن فارس: مقياس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩م.

– قاسم (سيزا):المفارقة في القص العربي المعاصر مجلة فصول،مج٢، ع ٢ ، ١٩٨٢م.

– كمالو (د. وفاء): تناقضات الوعى الفِكرى فى تجربة الإبداع،ط (١)، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

– المتولى (نعمان عبد السميع) :المفارقة اللُّغوية في الدِّراسات الغربيَّة والتُّراث العربي القديم، دراسة تطبيقية ،دار العلم والإيمان للنشر، د.ت.

– مُرسى (شعبان محمد): قراءات فى الفنون الأدبيَّة (خلال العصور العباسيَّة)، ط (٤)، دار الثَّقافة العربيَّة، ٢٠١٣م.

– المسدي (عبد السلام): الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب، التونسية للطباعة وفنون الرسم، ط٣، (د.ت).

– ابن منظور(محمد بن مكرم): لسان العرب، طبع دار المعارف، بيروت، دار صابر ، ١٩٦٢م.

– ميويك (د. سي.): المفارقة وصفاتها: موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة د.عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١، عمان– الأردن، ١٩٩٣م